جهود التوحيد أفلحت، في منتصف سنة ١٩٣٧، في توحيد الهاغاناه والمنظمة العسكرية القومية. وشهدت أوضاع الهاغاناه، خلال فترة الهدنة، نشاطاً محموماً في اعادة ترتيب اوضاعها الداخلية، وتمّ وضع مسألة «الأمن» في مقدّم الشؤون العامة في كل مدينة وموشاف وقرية (ص ١٢٥). وغدا السلاح جزءاً من الواقع اليومي، وأُنشىء نظام «السور والبرج» للدفاع عن المستعمرات ذاتياً، وافتتحت، كذلك، سلسلة من الدورات المركزية والدورات القطرية القصيرة، ووضعت خطط تعبوية، وخطط تشتمل الدفاع والسيطرة على مناطق المستوطنات.

الثورة العربية، ١٩٣٨ ـ ١٩٣٩

جاء نشر تقرير «لجنة بيل» طعنة نجلاء لأماني العرب في فلسطين؛ اذ لم يتحقق أي من مطالبهم الثلاثة (منع الهجرة، ومنع نقل ملكية الاراضي الى اليهود، وتأليف حكومة مسؤولة تجاه ممثلين منتخبين من الشعب). كما تضمّن تقرير لجنة بيل تأييداً لفكرة التقسيم، الامر الذي هدّد ـ حسب الرواية ـ زعامة المفتي. ومع سقوط الرهان الفلسطيني على سياسة بريطانيا، بدأت خطوط الاحداث تتلاشى فيما بينها، لتندلع الثورة من جديد.

«ان الفارق بين الثورة العربية سنة ١٩٣٦، وبين تلك الاحداث التي بدأت في تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٣٨، وانتهت تقريباً في أيار (مايو) ١٩٣٩، لا يتمثّل في المدة الزمنية وحجم العمليات فحسب، بل في طابعها المختلف أيضاً. ففي احداث سنة ١٩٣٦، كان الاضراب العام، والمقاطعة، ومحاولات العصيان المدني، و' الارهاب ' ضد اليهود، محاور رئيسة في مركز نشاط الثورة الوطنية، وكانت أعمال ' العصابات ' احد مظاهرها فقط. أمّا في احداث ١٩٣٨ ـ ١٩٣٩، فقد تركّز النشاط الاساسي في أعمال ' العصابات ' ، ومحاولاتها السيطرة على البلد» (ص ١٥١). وقدّرت الرواية الاسرائيلية الرسمية عدد المقاتلين العرب، في نهاية ١٩٣٩، بـ «١٥٠٠٠ شخص تقريباً، عُشرهم منظّم في كتائب صغيرة، تنتقل من قرية الى أخرى، والباقون أقاموا في منازلهم، وكانوا يشتركون في العمليات، كلّما تطلّب الامر ذلك» (ص ١٥٤).

وتناولت الرواية قادة «العصابات» بالتشهير والقدح المليء بالحقد. فهؤلاء القادة هم، «بصورة رئيسة، من الطبقات الشعبية في المجتمع العربي. امّا المثقفون والافندية العرب، الذين عملوا أعواماً عديدة في التحريض واشعال فتيل الثورة، فقد انكشفوا بكل عارهم وعجزهم عندما حان وقت العمل... واحد من أبناء الوجهاء فقط، هو عبدالقادر الحسيني، قام، شخصياً، بواجب الجهاد. وحتى هذا الواحد كان يعتبر، في عائلته، متهوّراً وغير قادر على تحمّل المسؤولية، وتميّز بقسوته ' السادية ' حتى بين زعماء ' العصابات ' القساة» (ص ١٥٤).

وفي تطرّقها الى قادة الفصائل، وصفت الروايةُ الاسرائيليةُ عارف عبدالرّازق، بأنه «برز منذ جاء كلص وقاطع طريق. كان عميلاً للشرطة، وسمساراً لبيع الاراضي لليهود. علا شأنه في الاحداث، وتميّز بقسوته وحبّه للكسب، وكان على استعداد لقتل كل من لا يدفع له لقاء خدماته» (ص ١٥٥). وتعرّض الكتاب الى نقاط الضعف في بنية «العصابات العربية»، والتي تتمثّل في وسائل دخلها، وتمويلها، وتسليحها، والأخطر من ذلك تنظيمها، الأمر الذي سهّل مهام الجيش البريطاني في مقاومتها، والحاق هزائم متتالية بها. و«برهنت هذه الهزائم ' للعصابات ' ان لا أمل لها بالصمود في معارك مكشوفة مع قوات الجيش، فعادت الى اسلوب ' الحرب الصغيرة ' الكلاسيكي، وانقسمت الى وحدات صغيرة» (ص ١٦١).

وأشار الكتاب الى احداث شهر آب (اغسطس) ١٩٣٨، كذروة للثورة العربية. ففيه «أُحرقت محطات القطار بين القدس واللد... وكذلك معظم المحطات الواقعة بين اللد والحدود المصرية. ووقعت غارات على بئر السبع، والخليل، وبيت لحم، وأريحا، ورام الله، أُحرقت، خلالها، مكاتب البريد والبلديات ومراكز الشرطة، وما شابه ذلك. وهوجم، بصورة خاصة، مركز الشرطة في هذه المنطقة، ووقعت كمية كبيرة من الاسلحة والذخيرة في أيدي الثوار» (ص ١٦٣).

الّا ان نشاط المقاومة أخذ ينخفض بالتدريج، بعدما أخضعت بريطانيا الطرق كافة لمراقبتها، من جهة، وبعدما رأس «عصابات السلام» فخري عبدالهادي، حيث «ألبس ' الارهابيون' الذين تركوا ' العصابات'